

حول علم الأولويات

عبد الفتاح القلقيلي

إن ترتيب الأولويات من حيث الأهمية والضرورة (نظريا وعمليا) يكاد يكون العامل الأهم في النجاح. والتزاما بهذه القاعدة سأبدأ ورقتي بالاشارة إلى أربعة علوم أراها ضرورية لكل حركة سياسية، يجب ان تُدرّسها في مدرسة كوادرها (وقد اشرت اليها حينما طُلب مني أن أعدّ منهاجا لمدرسة كوادر لحركة فتح). وهذه العلوم الأربعة هي: علم الاجتماع السياسي، وعلم النفس السياسي، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم الاولويات. وسأشير إشارة عابرة للعلوم الثلاثة الأولى لأكرّس ورقتي هذه للعلم الرابع "علم الأولويات".

١- علم الاجتماع السياسي (Sociologie politique)

لم يظهر هذا العلم إلا في فترة متأخرة مقارنة بالعلوم السياسية، وبالضبط في أواخر النصف الأول من القرن العشرين (بعد الحرب العالمية الثانية).

ولكن ثمة كتابات ومؤلفات قديمة تتضمن قرائن ومؤشرات وعلامات دالة على وجود علم الاجتماع السياسي، بطريقة من الطرائق، كما يبدو ذلك جليا عند أفلاطون في كتابه "الجمهورية"، وأرسطو في كتابه "السياسة"؛ وكذلك عند المثقفين العرب الذين اهتموا بالكتابات السلطانية أو بمبادئ السياسة الشرعية كابن خلدون وغيره (محمد امزيان: في الفقه السياسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الاولى، ٢٠٠١ ذكره جميل حمداوي على رابط:

<http://www.alukah.net/culture/090522//#ixzz42fUvIQOP>

* باحث فلسطيني

٢- علم النفس السياسي

علم النفس السياسي كما جاء في "ويكيبيديا، الموسوعة الحرة" هو مجال أكاديمي متعدد الاختصاصات، يقوم على فهم السياسة والسياسيين والسلوك السياسي من منظور نفسي. وتعتبر العلاقة بين السياسة وعلم النفس ثنائية الاتجاه؛ فيستخدم العلماء علم النفس كمرآة لفهم السياسة، وكذلك السياسة مرآة لعلم النفس. ويُعد هذا العلم مجالاً متعدد الاختصاصات، لأنه يأخذ مادته من مجموعة واسعة من التخصصات الأخرى، بما في ذلك: علم الإنسان، وعلم الاجتماع، والعلاقات الدولية، والاقتصاد، والفلسفة، ووسائل الإعلام والصحافة بالإضافة إلى التاريخ.

ويهدف علم النفس السياسي إلى فهم العلاقات المترابطة بين الأفراد والمواقف التي تتأثر بالمعتقدات، والدوافع، ومعالجة المعلومات، واستراتيجيات التعلم، والتنشئة الاجتماعية وتشكيل السلوك. وقد تم تطبيق النظرية النفسية السياسية ومناهجها في العديد من العمليات مثل: الدور القيادي، وتكوين السياسات الداخلية والخارجية، والتحركات الجماعية والصراعات، والسلوك العنصري، وسُبل ودافع التصويت، بالإضافة إلى دور وسائل الإعلام في التصويت، والنزعة القومية، والتطرف السياسي والسلوك في العنف العرقي الذي يشمل الحروب والإبادة الجماعية. ووفقاً لهذا يدرس علماء النفس السياسي أسس، وديناميات، ونتاج السلوك السياسي باستخدام التفسيرات المعرفية والاجتماعية.

نشأ علم النفس السياسي في أوروبا الغربية، حيث ارتبط ارتباطاً وثيقاً بنشأة علوم معرفية وفلسفات جديدة، فضلاً عن الأماط الاجتماعية والسياسية المتعارف عليها في مختلف البلدان. وبدأ فرع علم النفس السياسي في الظهور رسماً خلال الحرب الفرنسية البروسية، والثورة الاشتراكية التي اندلعت بقيام كومونة باريس (١٨٧١م). وقد استخدم أدولف باستيان Adolph Bastian، المتخصص في علم الأجناس مصطلح علم النفس السياسي لأول مرة في كتابه رجل في التاريخ (١٨٦٠م).

كما ساهم سيغموند فرويد (١٨٥٦م - ١٩٣٩م) Sigmund Freud كثيراً في مناهج علم النفس السياسي، عن طريق تأثير التحليل النفسي (حيث أنه ربط التحليل النفسي بالسياسة).

٣- علم النفس الاجتماعي

علم النفس الاجتماعي هو فرع من فروع علم النفس، يدرس السلوك الاجتماعي للفرد والجماعة، كاستجابات لمثيرات اجتماعية، وهدفه بناء مجتمع أفضل قائم على فهم سلوك الفرد والجماعة.

ومعنى آخر فإن علم النفس الاجتماعي عبارة عن الدراسة العلمية للإنسان ككائن اجتماعي. يهتم هذا العلم بالخصائص النفسية للجماعات وأمط التفاعل الاجتماعي والتأثيرات التبادلية بين الأفراد مثل العلاقة بين الآباء والأبناء داخل الأسرة والتفاعل بين المعلمين و المتعلمين.

ومن مكونات علم النفس الاجتماعي "السلوك الاجتماعي وديناميات الجماعة" فالجماعة هي وحدة إجتماعية من مجموعة من الافراد تربط بينهم علاقات اجتماعية ويحدث بينهم تفاعل اجتماعي متبادل فيؤثر بعضهم في بعض.

ويقوم علم النفس الاجتماعي بدراسة الأسس النفسية لعلاقات الناس بعضهم ببعض. كما يقوم علماء النفس الاجتماعي بدراسة عمليات مثل الاتصال والتعاون والتنافس واتخاذ القرار والزعامة والتغيير في المواقف. (أنظر بهذا الخصوص الجماعات الوظيفية للدكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق ٢٠١١).

وقد نشرت أوائل الكتب الدراسية في علم النفس الاجتماعي في بداية القرن العشرين الميلادي. ويدين علم النفس الاجتماعي الحديث بالكثير لعلماء النفس السلوكيين في بداية ثلاثينات القرن العشرين الميلادي الذين نادوا بالدراسة العلمية للسلوكيات التي يمكن ملاحظتها.

٤- علم الأولويات

يتعامل علم الاولويات مع القضايا المختلفة على مستويات عديدة، فيُعامل به على مستوى الأفراد وعلى مستوى الأسر والجماعات والشعوب والأمم، فإذا استطعنا أن ندخل في ثقافة الفرد "فن" ادراك الأولويات ومنهجية تحديدها فذلك سيعود على الفرد بانتظام حياته ما دام حيًا. وتعامل هذا العلم مع المستوى الفردي لا يجعل منه أمراً هيناً يمكن لأي أحد ممارسته، فإن من الصعب تحديد أولويات الفرد من غير ملاحظة مجموعة كبيرة من القضايا والشؤون المختلفة تتناول بالتحليل والتعليل صحة الفرد وعمره التقديري وماله وأسرته وسكنه ونمط معيشته وزمانه ومكانه وبيئته وسائر شؤونه وشجونه المتعلقة بماضيه وحاضره ومستقبله، ثم يوازن بعد ذلك بين طموحاته وآماله وتوقعاته وجوانب الضغط عليه أو التيسير له لكي يستطيع بعد ذلك رسم خارطة لأوليواته فيقدم ما حقه التقديم من شؤونه ويؤخر ما حقه التأخير، ذلك لأن طموحات الانسان وتطلعاته تتجاوز في الغالب أوقاته ووسائله وأدواته، كما تتجاوز قدراته الآتية سواء في اطار عدم توافر الشروط أو في دائرة وجود الموانع. وما ينطبق على الفرد يكاد ينطبق ايضا على الأسرة والشعب.

فإذا تجاوزنا الفرد إلى النظر في تحديد "أولويات أسرة" باعتبارها الوحدة الصغرى في بناء المجتمع فإن المتطلبات التي نحتاج إلى ملاحظتها لتحديد أولويات الاسرة ستكون أكبر بكثير من متطلبات

تحديد أولويات الفرد، وتظل الدائرة تتسع من وحدة لأخرى فتكون بالنسبة للمؤسسة الكبرى أوسع منها بالنسبة لمؤسسة أصغر حتى نأتي إلى دائرة أولويات الشعب. وهنا لابد من تضافر الجهود كلها واستخدام مبدأ الشراكة بأوسع معانيها، والقيام بالدراسات المكثفة لسائر الجوانب الفاعلة والمؤثرة في حياة الشعب: السياسية منها والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، واستعمال سائر العلوم الانسانية الاجتماعية أو رصيد الخبرات والتجارب الانسانية للوصول إلى تحديد مناسب لأولويات الشعب في مرحلة زمنية محددة، من حيث إمكانياته، وطموحاته، وأحوال محيطه، بما في ذلك اصدقائه وخصومه واعدائه.

ومعلوم أن إدراك الأولويات يعتبر درعاً وحماية من الكسل أو الفتور النفسي أو العقلي، وتجاوز الأولويات مدعاة إلى الوقوع في ذلك وتهيئة أسبابه.

حُسن ترتيب الأولويات الحياتية هو سر نجاح الناجحين في الحياة في كل ميادينها

وقد قسم علماء الإدارة الأعمال حسب أهميتها إلى أربعة أنواع، هي: أعمال هامة وعاجلة، وأعمال هامة ولكنها غير عاجلة، ثم أعمال غير هامة ولكنها عاجلة، وأعمال غير هامة وغير عاجلة ايضاً. فالأولوية يجب أن تكون دوماً على جدولك للأعمال الهامة العاجلة، وثانياً للأعمال الهامة غير العاجلة، وثالثاً للأعمال غير الهامة العاجلة، وأخيراً للأعمال غير الهامة غير العاجلة. وترتيب الأعمال بتلك الصورة ترتيب يجعلك تقوم بفعل أولوياتك الحقيقية بعيداً عن توهم الأولوية للأعمال التي لا تستحق الجهد أو على الأقل لاتستحق أن تكون في مقدمة اهتماماتك. ويجب مراعاة ذلك في إدارة الأعمال سواء كانت هذه الأعمال اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو فنية.

فالمستوى الأول من الأعمال هو مستوى الأعمال الهامة العاجلة، وهي الأعمال التي تمثل صلب عملك، والتي تحسن إنجازها، كما أنها هي التي تكون مطلوبة منك على وجه عاجل، وهي تلك الأعمال التي لا يمكن تأخيرها عن موعدها أو الاعتذار عنها أو التفويض فيها وكذلك كل الأعمال التي سيترتب على غيابك عنها أو تأخرك عنها أو عدم إنجازك لها أو عدم تركيزك فيها ضرر ما.

وأما المستوى الثاني من الأعمال: فهو مستوى العمل الهام غير العاجل وهو يتمثل في مسؤوليات الأعمال بشكل عام من حيث المتابعة والتدقيق لتحسين الكفاءة وتقويم الأداء وكذلك رسم الخطط وترتيب الأولويات وتحديد الإمكانيات وتنظيم الأوقات واختيار سبل ووسائل الوصول للأهداف التي قد سبق ووضعتها لنفسك سواء كانت أهدافاً مرحلية أو أهدافاً بعيدة.

والمستوى الثالث من الأعمال: هو العمل العاجل، ولكنه غير هام، وهذا المستوى الذي يقدمه معظم الناس في أولوياتهم على أعمالهم الأخرى، وربما يتسبب ذلك في إرباك كبير في جدول أعمالهم، وهذا المستوى يحسن فيه استخدام التفويض في العمل بحيث ما أمكن أن يؤديه غيرك من أعمال هذا المستوى فلا تتردد فوراً في تفويض أحدهم بذلك وأما المستوى الرابع: فهو مستوى الأعمال غير الهامة غير العاجلة، ومكانها في مؤخرة الجدول ولا شك.

وحين نحاول رصد الآثار السلبية الخطيرة والانحرافات والأمراض الكثيرة التي يُصاب بها شعب أو أمة نتيجة الخطأ بترتيب الأولويات نستطيع أن نرصد من السلبات على عجل ما يلي:

١- الاستغراق بالجزئيات والتفاصيل والانشغال عن الكليات والعجز عن رد الجزئيات إلى الكليات والفروع إلى الأصول وفهم العلاقة الدقيقة بينها.

وفي الساحة الفلسطينية تجلّت هذه الظاهرة بوضوح بعد أوصلو وإقامة السلطة الوطنية منذ عام ١٩٩٤.

٢- تقديم التكتيكي على الاستراتيجي والتضحية بالثاني لحساب الأول، وهو ما يشبه في الدين "تقديم النوافل على الفرائض". وبالمناسبة فإن الفقه الاسلامي فيه فرع مستقل بعنوان "فقه الأولويات".

وتجلّت هذه الظاهرة (التضحية بالاستراتيجي من اجل التكتيكي) في الساحة الفلسطينية بعد عام ١٩٩٩ حيث انتهى العمر الافتراضي للمرحلة الانتقالية للسلطة الوطنية الفلسطينية، وكان يجب ان تبدأ المرحلة النهائية بإقامة الدولة الفلسطينية.

٣- العزوف عن الأخذ بالأسباب، والميل إلى تجاوزها لأدنى سبب توكلاً أو توكلاً أو اعتماداً على مُفترض أو متوهم مع تجاهل أن الارتباط بين الأسباب والمسببات ارتباط سُنن (قوانين طبيعية حتمية). وتجلت هذه الظاهرة في الساحة الفلسطينية بعد الاجتياح الاسرائيلي (عام ٢٠٠٣) لمناطق السلطة الوطنية الفلسطينية التي كان يُطلق عليها مناطق "أ".

٤- انحراف في خط التفكير وانحراف في منهجيته، ويترتب عليه اضطراب في المنطق، وانحراف في أساليب البحث، وتجاهل لمناهج الحوار والاستدلال والاستنباط، وتخبّط في النضال والتفاوض والبناء.

٥- خلط شديد بين ما هو ثابت وما هو متغيّر، وكثير من الثوابت تتحول إلى متغيرات بدوافع وأسباب ساذجة وشخصية. وكثيراً ما أدى ذلك إلى خلط في قضايا المقبول والمردود، والفردي والجماعي. وتجلت هذه الظاهرة في الساحة الفلسطينية منذ استعادت التفاوض مع تنياهو

بضغط من الولايات المتحدة الاميركية.

٦- الرغبة عن التمحيص العميق، والميل إلى الارتجال بدعاوى مختلفة، منها البحث عن البساطة، أو الرغبة في تجاوز التكلفة.

٧- المساواة بين التخطيط الدقيق للامور وبين الارتجال، مرة بحجة التساوي في النتائج، أو تقارب تلك النتائج. وتجلى ذلك في الساحة الفلسطينية من خلال التعامل مع النقابات والمنظمات الشعبية والنضالات المطلوبة.

٨- من يصاب بكل ما تقدم ينزع دائماً إلى تبرئة الذات واتهام الآخرين، للعجز عن مراقبة الذات ومحاسبتها، فإن هول هذه الاصابات يجعل مجرد استحضارها أمراً صعباً على النفس فتسارع الجماعة إلى تزكية ذاتها، والقاء التهمة على الآخر، لكنها ايضا تفقد الثقة بالنفس اضافة إلى فقدانها بالآخرين، ويتردد على ألسنة نخبها تحديد مسؤوليات الآخرين دون القيام بمسئولياتهم هم. تكاد هذه الظاهرة تسود منذ الانقسام الفلسطيني (عام ٢٠٠٧) الذي تسميه حركة فتح "إنقلاباً" وتسميه حركة حماس "حسماً عسكرياً".

٩- حين لا تُستحضر الأولويات ينشغل الناس بالشعارات والتهاويل ويتجاوزون المضامين، ويستعجلون النتائج، ويضطربون بين اليأس والقنوط والطمع المبالغ فيه والرجاء القائم على غير أساس والاحباط أو الغرور. ونشير هنا الى قول محمود درويش: "ويدعو لأندلس إن حوصرت حلب!!!!". وهذه الظاهرة هي السائدة الآن في الساحة الفلسطينية.

١٠- الجهل بترتيب الأولويات يؤدي إلى أن ينشب صراع بين أهل العلم والعمل، أو بين أهل الفكر والعمل لعدم تحديد العلاقات بشكل مناسب.

١١- تجاوز علم الأولويات يؤدي إلى هيمنة كثير من الأوهام على العقل الانساني، فيضطرب الانسان اضطراباً شديداً، فمرة يندفع بدافع الخوف، وكل ذلك إنما ينجم عن فقدان "سلم" الأولويات، وتداخل المراتب، والعجز عن التفكير الكلي وتنظيم الأمور داخله.

١٢- حين يتراجع علم الأولويات في أمة تسود حياتها الاتجاهات الشكلية وعمليات الفصام بين النظرية والتطبيق، وقد تعتمد إلى تعاطي ما يُعرف بـ (الحيل والمخارج) او ما يُعرف بـ "الفهلوة" والبهلوانية السياسية، سواء في السياسة الخارجية او السياسة الداخلية.

١٣- حين يضطرب علم الأولويات في أمة يسود حياتها التناقض أفراداً وجماعات، فقد تجد الانسان يحرص الحرص كله على أداء الصلاة جماعة ولكنه لا يتردد في المشي بين الناس بالنميمة أو اغتياب

- الناس وتفريق الجماعات وربما التجسس على هذا وتتبع عورة ذاك أو غير ذلك من المفاسد.
- ١٤- تجاوز الأولويات يؤدي إلى ممارسات خاطئة كثيرة تنطلق من اضطراب المفاهيم، فقد يختلط على الانسان مفهوم (الثهور) بمفهوم (الشجاعة)، ومفهوم (البخل) بمفهوم (الاقتصاد)، ومفهوم (الكرم) بمفهوم (الاسراف) وتنعدم المساحات الفاصلة بين هذه المفاهيم وتضمحل.
- ١٥- من يتجاوز الأولويات قد يتجاوز الواقع كله إذا كان مرأً ويهرب من مضايقاته إلى الخيال ليرسم لنفسه من خلال الخيال الصورة المرغوبة أو المناسبة، وقد يهرب إلى الماضي ويتجاوز الحاضر والمستقبل والواقع للغرض نفسه. وذلك ما يعانيه العديد من المثقفين الفلسطينيين.
- ١٦- من يتجاوز الأولويات يغلب عليه الاهتمام باللفظ، وتجاوز المعنى وعدم تحديد المفاهيم وعدم العناية بالمصطلحات (كما أسلفنا أعلاه) وربما يتجاوز ذلك كله إلى نوع من الوجدانيات والتأملات يُغَيِّب بها عقله ونفسه لكي لا يدرك حقيقة ما عليه أن يفعل.
- ١٧- من يتجاوز الأولويات كثيراً ما يفقد الموازين الدقيقة لما يأخذ ولما يدع ويعمد إلى التعميم، وإيقاف المعايير، والانحياز دون مبرر إلى الذات أو إلى الفئة أو سواها.
- ١٨- من يتجاوز الأولويات يصير إلى هيمنة التفكير الأحادي واللجوء إلى الأحكام القيميّة والتسرّع في اصدارها وقد يؤدي ذلك به إلى نفي وجود الآخر حكماً.
- ١٩- تجاوز الأولويات يؤدي إلى فقدان مداخل من أهم مداخل النقد والتصحيح الذي يمكن أن ينطلق من خلال ادراك الأولويات، ودقة ترتيبها وتنظيمها إلى غير ذلك من انحرافات وسلبيات يمكن رصدها كظواهر وأعراض تنجم عن حالة تجاوز أو فقدان الاهتمام بعلم الأولويات.
- ٢٠- إن كثيراً من المشكلات وأسباب الخلاف التي تقع بين حركة الاصلاح، وتيارات التغيير الاجتماعي تنجم عن الاضطراب في تحديد الأولويات، والاختلاف عليها، ومعرفة علم الأولويات قد يساعد على حسم كثير من الخلاف الدائر بين حركات الاصلاح، (داخل الحركات السياسية نفسها، ومنها حركة فتح بالطبع). فالخلاف بين هذه الأطراف يرجع (عند التدقيق) إلى الاختلاف حول الأولويات وطرق تحديدها، والمرجع في تحديدها.
- وهذا كله يؤكد ضرورة بناء هذا العلم، وتربية أجيالنا على قواعده، والبحث عن الخلل في ترتيب الأولويات عند دراسة اي خلل في مسيرتنا الشخصية أو العامة في أي مجال من المجالات.
- ويُضرب المثل على قمة الغباء في ترتيب الأولويات انه جاء شخص يبحث في ارجاء إحدى الغرف، فسأله احدهم: ما الذي تبحث عنه يارجل؟

قال الرجل: أبحث عن مفتاحي الذي أضعته أمس.

سأله السائل: اين كنت تجلس؟

قال الرجل: على الكرسي في الغرفة الثانية.

ضحك الجميع، وقال أحدهم: لماذا لا تذهب وتبحث عنه في الغرفة المجاورة حيث أضعته؟

أجاب الرجل: كيف سأبحث عنه هناك وليس هناك ضوء؟!!!

ضحك الجميع مرة اخرى، ولكن بصوت أعلى، وقال احدهم: ابحث عن المفتاح حيث اضعته يا

مغفل!!!

وكان أحد الظرفاء الفلسطينيين ضمن الحضور، فقال: لعليّ إلتقيتُ بمثل هذا الرجل في بعض

"دهاليز" السياسة!!!!!!